

حسناتُ الابلاءِ وإيجابياتُه



<https://balagh.com>

يقول تعالى: (أَعْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتَدَرَّكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنُوا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ إِنَّ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ) (العنكبوت/3-2). وفي الخبر عن رسول الله (ص): «لولا ثلاثة في ابن آدم ما طأطأ رأسه شيء: (المرض) و(الموت) و(الفقر) وكلّهم فيه، وإنّه لمعهم لوثّاب»، أي مع كثرة طالبيه الأشدّاء، إلا أنّه مغورٌ بنفسه، مُعجبٌ بقوّته.

وعلى ذلك يمكننا أن نرصد أهمية الابلاء في حياتنا ضمن النقاط الآتية:

- 1- كسر رتابة الحياة، إذ لو صيفت الحياة على نمط واحد لسأم الإنسان من روتينها المُمل، والابلاءاتُ خيرٌ مَنْ يُجَدِّد شبابَ الحياة، لأنّها ترسم وتُلوّن الوجه الآخر للحياة، فلا يُقدِّر النّعمةَ حقّاً قدرها مَنْ يعيش النعيم الدائم، وإنّما تحلو الحياة لا بحالاتها فقط، بل بمراراتها أيضاً، وبنجاحاتها وفشلها، وانتصاراتها وهزائمها، ولو كانت خلواً من الابلاء لم تكن هذه هي الحياة التي نعرفها.

طُبعت على كدرٍ وأنتَ تُريدها

صفوًا من الأقدارِ والأكدارِ

ومُكلاً فِي الأيّامِ ضدَ طباعها

مُتطلِّبٌ في الماءِ جذوةَ نارٍ!

2- إتاحة الفرصة للتمييز والغريلة بين الهم العالمة والأخرى الواطنة، وبين أنصار الحقِّ من أنصار الباطل، والمعادن النفيسة من المعادن الخسيسة.. وكما أنَّ الذَّهَبَ يُختبر بالنار ليصفو من شوائبه، فإنَّ ذَهَبَ الإنسان لا يتجلَّى نقياً صافياً إِلَّا في أوقات الشدَّةِ، وأيَّامِ المحنَّةِ، التي من ألطافها أنَّها تفرز الدخيل من الأصيل، وال حقيقي من المزيَّفِ.

3- لو لم يكن هناك شدائِد وابتلاءات، لطال أمد التميُّع والنعومة والترف والبطر في حياة الإنسان، ولما كان مستعداً لمواجهة المصاعب والتحدُّيات، بل لقسى قلبه وتبدلَّ مشاعره، ذلك أنَّ زمان الابتلاء بالوباء ألم غير الوباء، يجعل الإنسان أكثر رهافة وإنسانية وأخلاقية في التعاطي مع أخيه الإنسان، ولكلِّ قاعدة بالطبع استثناءات. ولهذا يُحدِّثنا القرآن عن حالات التطرُّف الإنساني، بقوله: (كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَكِنْ طَغًى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى) (العلق/ 6)، وقوله: (فَطَالَ عَذَابُهُمْ الْأَمَدُ فَقَسَّتْ قُلُوبُهُمْ) (الحديد/ 16).

4- البلايا مُقرِّبات إلى ساحة الله تعالى بعد هجرانها والابتعاد عنها والانغماس في اللهوات والشهوات، وخير دليل على ذلك ما نحنُ فيه اليوم من عودة إلى ظلال الرحمة نتفيؤها، وإلى التعلُّق بأسباب القوّة المطلقة ننسدَّ إليها، بعد أن تأكَّدَ لنا أنَّ لا قوَّةَ إِلَّا بِهِ، ولا ثقة إِلَّا به، وأنَّه مالك الشفاء حينما يعزُّ الشفاء، وأنَّه المنجي حيث لا نجاة إِلَّا به، لا في عهد كورونا وحسب، بل في كلِّ ضائقَة تحدق بالإنسان، في البرِّ كان، ألم في البحر، ألم في الجو. قال تعالى: (فَأَخَذَهُمْ بِالْأَبْأَسِ وَالضَّرَّاءِ لَعَذَابَهُمْ يَتَضَعَّرُونَ) (الأనعام/ 42).

5- لولا الابتلاءات لزهد الإنسان بدار النعيم الأبديَّة، ولركن إلى دُنياه بكلِّ ما فيها من عيوب ومنغصات ونقائص.. أمّا إذا كان يعلم أنَّ الدُّنيا دار ممر لا دار مقر، وأنَّه سينتقل من دار خَمرَبة إلى دار عามرة، وأنَّه سينجو من كلِّ الآفات والمكدرات والهموم والغموم التي تصحُّ بها

الدُّنيا، فَإِنَّهُ يُرْحَبُ بالابتلاء ماحياً لسيّئاته، رافعاً لدرجاته، منقياً له من الشوائب والرواسب التي علقت به في رحلته الدُّنيوية، فــ حــاــ بــ اــتــقــالــهــ مــنــ دــارــ الشــرــورــ إــلــىــ دــارــ الســرــورــ. يقول جلــ جــالــهــ: (أــتــســتــبــدــ لــ وــنــ الــذــيــ هــوــ أــدــ نــىــ بــالــذــيــ هــوــ خــيــرــ) (البقرة/ 61).

6- الابتلاءات، على عكس ما يتتصوّر بعضنا من أنّها مُكبّلات أو مُثبّطات، هي من أنواع المُنشّطات التي تحتاجها لتذويب الدهون النفسية، والتراهــلــ الروحيــ، والخمول العقليــ، والكسل البدنيــ.. لقد لاحظ دارسو تاريخ الحضارات أنــ الحروب كانت أسبابــاــ مهمــةــ للاختراعاتــ والاكتشافــاتــ، الطبيةــ والتقنيةــ والعلميةــ، وأنــهاــ وإنــ رافقتهاــ خسائرــ بالأرواحــ والممتلكاتــ؛ لكنــهاــ مــحــرــكــ منــ مــحــرــكــاتــ الإــبــادــاعــ.. وفي الإجمالــ، فإنــ الشجرةــ البرــيةــ -ــ كما ورد عن الإمامــ عليــ (ع)ــ: «أصلــبــ عــودــاــ، والروائعــ الخضرــةــ أرقــ جــلــ عــودــاــ، والنباتــ العــذــيــةــ أــقــوىــ وــقــودــاــ، وأــبــطــأــ خــمــودــاــ»ــ.

يُقال إنــ (الفواكهــ) تتباهى علىــ (الســكــرــ)ــ قائلــةــ: لــقــدــ تــجــرــ عــنــاــ كــثــيرــاــ مــنــ المــرــارــةــ حتىــ وــصــلــنــاــ إــلــىــ مــنــزــلــةــ الــحــلــاوــةــ، فــمــاــ تــعــرــفــ أــنــتــ عــنــ لــذــةــ الــحــلــاوــةــ وــلــمــ تــعــانــ مــشــقــةــ الــمــرــارــةــ قــطــ؟ــ!

إنــ الأــمــ الــتــيــ لــاــ تــنــكــســ وــلــاــ تــهــزــمــ بــســهــوــلــةــ، هيــ تــلــكــ التــيــ عــاــشــتــ الــمــعــانــةــ وــالــمــصــاعــبــ فــيــ طــرــيــقــ نــهــضــتــهــ، وــعــبــدــتــ طــرــيــقــهــ الــوــعــرــ بــالــآــلــمــ وــالــمــصــاعــبــ وــالــدــمــوــعــ وــالــدــمــاءــ، وــعــلــىــ عــكــســهــ الــأــمــ الــتــيــ اــســتــغــرــقــتــ فــيــ الــمــيــوــعــةــ وــالــتــرــفــ وــالــلــلــيــوــنــةــ وــالــبــذــخــ وــالــبــطــرــ.

7- ولــأنــ الحــســ الإنســانيــ، كــالمــعــدــنــ يــحــتــاجــ إــلــىــ صــقــلــ بــيــنــ حــينــ وــآــخــرــ، وــإــلــاــ رــانــ عــلــيــهــ الصــدــأــ، وــتــبــلــاــدــ وــلــمــ يــعــيــشــ نــزــعــتــهــ الإنســانــيةــ وــالــوــجــداــنــيــةــ فــيــ مشــاطــرــةــ الــآــخــرــ هــمــومــهــ وــمــعــانــاتــهــ، كــذــاــ بــحــاجــةــ دــائــمــةــ إــلــىــ الــإــنــســانــ الــغــيــورــ الــذــيــ تــأــخــذــهــ الرــأــفــةــ بــالــآــخــرــ، ســوــاءــ أــكــانــ أــخــاــ لــهــ فــيــ الدــرــينــ أــمــ نــظــيرــاــ لــهــ فــيــ الــخــلــقــ.

وفترات المحنــ والــأــبــتــلــاءــاتــ تــتــحــوــلــ -ــ فــيــ الغــالــبــ -ــ إــلــىــ وــرــشــاتــ نــشــطــةــ لــبــنــاءــ وــصــنــاعــةــ الــإــنــســانــ الــخــشــنــ الــقــادــرــ علىــ مــواجهــةــ التــحدــيــاتــ، وــلــإــعادــةــ تــدوــيرــ الــإــنــســانــ الــخــامــلــ الــهــزــيلــ، وــلــتــرــكــيــبــهــ مــنــ جــدــيدــ بــحــيثــ يــكــوــنــ مــؤــهــلاــ لــإــحــادــاثــ نــهــضــةــ حــضــارــيــةــ جــديــدةــ.

يقولــ (جلــالــ الدــيــنــ الرــوــمــيــ)ــ فــيــ (كتــابــ فــيهــ مــاــ فــيهــ): «ــمــاــ لــمــ يــُـظــهــرــ الــأــلــمــ دــاخــلــ الــإــنــســانــ (الــشــفــقــ)ــ وــ(الــعــشــقــ)ــ لــنــ يــقــمــدــ إــلــيــهــمــاــ، وــلــوــ لــمــ تــظــهــرــ آــلــمــ الــوــضــعــ لــ(مــرــيمــ)ــ لــمــاــ قــصــدــ الشــجــرــ الــمــبــارــكــةــ (فــأــجــاءــهــاــ الــمــخــاـصــ إــلــىــ جــذــعــ النــخــلــةــ)ــ (مــرــيمــ/23)ــ..ــ فــأــلــجــأــهــاــ الــأــلــمــ الــيــهــ، كــانــ الشــجــرــ جــاــفــةــ فــغــدــتــ مــثــمــرــةــ..ــ الــجــســمــ مــثــلــ مــرــيمــ، وــكــلــ مــنــدــاــ لــدــيــهــ (عــيــســىــ)ــ فــيــ دــاــخــلــهــ، فــإــذــاــ حــدــثــ لــنــاــ

الألْمُ وَلِدٌ (عيساناً) !!

الروحُ في الداخل في فاقة، والجسدُ في الخارج في ثراء، والآن فتداوِ، فإنَّ مسيحَك على الأرض، إذ
عندما يعود سينتبدَّد كلَّهُ أمل بعالجه» !!

إنَّ خلاصة ما يمكن قوله بشأن الشور في الحياة، أنَّ إرادة الشرَّ تكون قبيحة إذا أُريد الشرُّ
لذاته.. أمَّا إذا أُريد لخير فلا يكون قبيحاً (ولَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ) (البقرة/179)..
فالقصاص يمكن أن يُقال بأزنه شر لأنّه هدم لبنيان الله؛ ولكنّه شر جزئي، وصيانة الناس عن
القتل خيرٌ كليٌّ، فإنّ إرادة الشرَّ الجزئي طلباً للخير الكلي ليست قبيحة! هذا زبدة ما يراه
العُرفاء!